محاضرة 6: عبد الحميد بن هدوقة (1925- 1996):

1. النشأة والتكوين:

رائد الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية، ولد في المنصورة ولاية برج بوعريريج سنة 1925م، أنهى دراسته الابتدائية بالمنصورة وقسنطينة، ثم التحق بجامع الزيتونة بتونس (شعبة الآداب)، انخرط في نشاط الحزب الحر الدستوري التونسي، ودخل مدرسة التمثيل العربي بتونس ثم سافر إلى فرنسا سنة 1945 ليلتحق بمعهد مهني، ليعود في العام نفسه إلى تونس، ويسجن لفترة، ثم يعود إلى الجزار ليعيش باسم مستعار (عبد الحميد مصطفى) زمنا قبل أن يشد الرحال مرة أخرى إلى فرنسا، ليلتحق بالإذاعة الفرنسية، ثم الإذاعة التونسية. وبعد استقلال الجزائر (1962) ترك تونس ليشتغل منسقا عاما للبرامج الفنية بالإذاعة الجزائرية، ثم تقلد العديد من المناصب الإذاعية الرئيسية، قبل أن يطلب التفرغ لإنجاز أعماله الإبداعية المؤجلة (1983)[1].

2. مشروع بن هدوقة الأدبي:

انصبّ اهتمام **عبد الحميد بن هدوقة** في مشروعه الأدبي على محورين أساسيين شكّلا ملامح اختياره الفكري والجمالي؛ أولهما اعتماده اللغة العربية وسيطًا تعبيريًا واعيًا، إيمانًا منه بأنها الأقدر على إيصال أفكاره إلى أوسع شريحة من القرّاء العرب، وأنها الحاضن الطبيعي لقضاياه وهموم مجتمعه. أمّا المحور الثاني فتمثّل في اختياره فنّ الرواية مجالًا إبداعيًا رئيسًا،

[1]- حمدي السكوت، قاموس الأدب العربي الحديث، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2015م، ص 432.

باعتباره الجنس الأدبي الأكثر انتشارًا وقدرةً على احتضان الإشكالات الكبرى، لما يتيحه من فسحة سردية تستوعب تعقيدات الواقع وتناقضاته، وتمنح الكاتب إمكانية التحليل والتشخيص واستشراف التحوّل في آنٍ واحد.

وتتميز أعمال بن هدوقة حسب معظم النقاد بأنها: «اجتماعية، وواقعية صافية، وفيها شيء من الرومانسية، والوجودية، وإنها لا تخلو من الشاعرية والرمزية، وهناك من جعل الروائي واقعيًا نقديًا يتسم بوضوح الرؤية تارة وقصورها تارة أخرى».[1]

ويكشف هذا التعدد في التوصيف يعكس ثراء تجربته؛ فهو واقعي لأنه يلتصق باليومي والمعيش، ونقدي لأنه لا يكتفي بالوصف بل يسائل، وشاعري لأنه يمنح الواقع بعدًا جماليًا، ورمزي لأنه يوظف الإيحاء لتكثيف الدلالة.

كما تعكس مسيرته الأدبية مسار الجزائري الذي عاش حلم التحرير ثم واجه تعقيدات الواقع بعد الاستقلال؛ فتتحول الكتابة عنده إلى مرآة للتحولات الجماعية، حيث يلتقي الذاتي بالتاريخي، ويتداخل الخاص بالعام في نسيج سردي واحد.

1.2. اللغة العربية:

لم تكن الكتابة باللغة العربية عند بن هدوقة خيارًا تقنيًا، بل كانت موقفًا حضاريًا وثقافيًا في سياق ما بعد الاستعمار. فاللغة هنا ليست أداة تعبير فحسب، وإنما هي فضاء للهوية والانتماء. ولذلك فهو «يعتبر أن لغة الكاتب هي وطنه»[2] ؛ وهي عبارة تؤسس لرؤية عميقة ترى أن الانتماء اللغوي إقامة رمزية في الوطن، وأن التفريط فيه تفريط في الذاكرة والتاريخ والرموز الجماعية.

---

[1]- الطيب ولد لعروسي، أعلام من الأدب الجزائري، الجزائر: دار الحكمة للنشر والتوزيع، 2012م، ص167.
[2]- الطيب ولد لعروسي: ص158.

ومن هنا كان تعبيره عن هموم الجزائر مشروطًا بالكتابة بالعربية، حتى يتمكن من تحديد موقع هذا الوطن بين المجتمعات الأخرى، لا بوصفه تابعًا، بل بوصفه ذاتًا فاعلة. واختياره الكتابة بالحرف العربي هو موقف واعٍ لأهمية ذلك في فترة حساسة من عمر الوطن كانت فيها اللغة العربية تعاني التهميش. وغايته من ذلك «أن تخدم اللغة الجزائر وشعبه، وأن تجعل منه في الصدارة الثقافية، بالإضافة إلى كونه بلدًا معنيا بقضايا التحرر وأحد رموزه».[1]

يتجاوز هذا التصريح حدود الإبداع الأدبي إلى أفق مشروع حضاري يجعل من اللغة أداة لاستعادة الفاعلية الثقافية وربط الجزائر بقضايا التحرر الكبرى.

3.2. فن الرواية:

تميّز مشروع بن هدوقة الروائي بانخراطه العميق في قضايا المجتمع الجزائري في مرحلة حسّاسة من تاريخه. فقد جعل من الرواية فضاءً لمساءلة الأرض بوصفها رمزًا للهوية، والمرأة بوصفها معيار التحول الاجتماعي، والثقافة والسلطة بوصفهما مجالًا للصراع.

يقول بن هدوقة: «حاولت في ما كتبته على تواضعه، أن أعالج نقاط التأزم الرئيسية في الوضع الجزائري بصفة تدخل أكبر قدر من المستقبل في الحاضر، وتبتعد عن المضامين الجاهزة والأشكال النابعة من مراكز خارجية اعتقادًا مني بأن الانطلاق من المعطيات التاريخية المحلية لكل قطر عربي، لو روعيت في أعمالنا الأدبية لأرجعت لنا شيئًا من الكرامة، وجنبتنا كثيرًا من مزالق الاستلاب، فالثقافة العربية التي عاش العالم على كرمها الروحي ما يقرب من الألف سنة لا تستحق هذا الواقع الذي وضعها فيه تخلفنا المادي والسياسي، إن هذه الاهتمامات هي التي جعلتني في كل أعمالي الأدبية أعمل على معالجة

[1]- الطيب ولد لعروسي، أعلام من الأدب الجزائري الحديث، ص160.

الواقع المتأزم والجوانب المظلمة في حياتنا الاجتماعية مبتعدًا بقدر الإمكان عن الاغتباط بما حققناه من إيجابيات»[1]

يدل إدخال المستقبل في الحاضر على أن الأدب عنده ليس تسجيلًا للراهن، بل محاولة لتوجيهه. كما أن رفض الأشكال النابعة من مراكز خارجية يؤكد رغبته في بناء نموذج تعبيري مستقل يستند إلى المعطيات التاريخية المحلية. وهنا تتجلى العلاقة العضوية بين الإبداع والبنية الاجتماعية، فالأدب لا ينفصل عن السياق الحضاري الذي ينتجه.

ويمكن إجمال أهم القضايا التي اشتغل عليها في مشروعه الروائي في النقاط الآتية:

- التركيز على الاختلالات الاجتماعية والسياسية والثقافية بعد الاستقلال.
- توجيه الكتابة نحو أفق تغييري يستشرف إمكانات التحول.
- بناء شكل تعبيري نابع من البيئة المحلية بعيدًا عن النماذج المستوردة.
- جعل التاريخ الوطني والخصوصية الثقافية منطلقًا للإبداع.
- توظيف الأدب لاسترجاع الكرامة الحضارية ومواجهة الاستلاب.
- التحذير من الذوبان في الآخر دون وعي نقدي.
- الربط بين تراجع الثقافة والتخلف البنيوي.
- تسليط الضوء على التناقضات والصراعات داخل المجتمع.
- التركيز على مناطق العطب بوصفها مدخلًا للإصلاح.

[1]- المرجع نفسه، ص155.

إن تجربة عبد الحميد بن هدوقة ليست مجرد مسار روائي، بل هي مشروع فكري يسعى إلى إعادة تشكيل العلاقة بين الأدب والواقع، بين التراث والحداثة، بين الهوية والانفتاح.

لقد جعل من الرواية أداة مساءلة، ومن اللغة وطنًا، ومن المرأة والأرض رمزًا لمستقبل الإنسان الجزائري. وهكذا يتجلى مشروعه بوصفه محاولة جادة لإدخال المستقبل في الحاضر، وصياغة حداثة لا تنكر جذورها، بل تنطلق منها نحو أفق إنساني أوسع.

3. القضايا الأساسية في أدب بن هدوقة:

1.3. المرأة:

تُعدّ قضية المرأة من أبرز محاور مشروعه الأدبي قضية المرأة، إذ «نراع يعالج موضوع المرأة دون لف أو دوران، حيث كتب عنها وعن جسدها وآهاتها في روايته "ريح الجنوب" التي أدخل فيها المرأة كإنسان له دوره الكامل كجسد وعقل و أحاسيس ومشاعر».[1]

لقد كسر الصورة النمطية للمرأة بوصفها هامشًا، وجعلها مركزًا للرؤية السردية، ومؤشرًا لدرجة التحول الاجتماعي. ويقول الناقد الفرنسي جان بول ايفري عنه: «إنه جزائري حتى النخاع، لأنه عكس هموم الطبقات والشرائح الاجتماعية وطموحاتها عبر أعماله الأدبية ... ووضع المرأة في المقام الأول، ذلك أنها أهم مدرسة».[2]

إن وضع المرأة في الصدارة لا يعني إقصاء القضايا الأخرى، إنما يعني أن إصلاح المجتمع يبدأ من إعادة الاعتبار للإنسان في بعده الكامل.

---

[1]- الطيب ولد العروسي الطيب، أعلام من الأدب الجزائري الحديث، ص156.

[2]- المرجع نفسه، ص156.

2.3. الحرية:

إن استحضار تجربة التحرير عنده ليس تمجيدًا للماضي، إنما مساءلة للحاضر فهو يؤكد أنه «يحمل مسؤولية معاناة المجتمع الجزائري للجميع وبالأخص على السلطة وعلى المثقف والمعارضة.[1]

يكشف هذا الموقف عن رؤية أخلاقية شاملة ترفض ثقافة تبرئة الذات وإدانة الآخر، وتؤسس لفكرة المسؤولية المشتركة شرطًا لأي إصلاح حقيقي.

وترتبط الحرية بالحوار، إذ لا تتحقق الحرية برفع الشعارات، بل بفتح المجال لتعدد الأصوات. ويتجلى وعيه بذلك في كونه « له وجهات نظر حرة تؤمن بالنقاش والإيمان والقيم الحضارية للشعوب وبخاصة أن الجزائر خاضت تجربة كبرى وناضلت من أجل التحرير».[2] فالحرية عنده مسؤولية جماعية تمتد من التجربة السياسية إلى الفعل الثقافي، ويغدو الحوار امتدادًا طبيعيًا لروح التحرر.

3.3. التراث:

يمثل التراث في أعمال بن هدوقة موضوعًا جدليًا، فهو من جهة يمنحه قيمة عالية، ويتجلى ذلك بوضوح في رواية ريح الجنوب حيث يحضر التراث في تفاصيل الحياة اليومية: في الأواني، وفي الطقوس، وفي الحوارات، وفي الاحتفالات الشعبية في ساحة الدشرة.

إن هذا التوظيف لا يهدف إلى الزينة الفلكلورية، بل إلى تثبيت الجذور الثقافية للشخصيات وربطها ببيئتها التاريخية. غير أن هذا التقديس لا يتحول إلى انغلاق، فبن هدوقة يلمح دائمًا إلى ضرورة تجديد التراث وكسر العادات التي تسيء للمجتمع، كما يتجلى

---

[1]- أنظر: أعلام من الأدب الجزائري الحديث، ص163.
[2]- المرجع نفسه، ص161.

في الحوارات الداخلية لشخصياته النسوية في ريح الجنوب وبان الصبح وغدا يوم جديد.. ف «أعماله الروائية سلسلة من الصيحات ضد العادات والتقاليد البالية، تدفع في اتجاه تحقيق حداثة راقية لا تتجاهل ماضيا هو جزء من فكرنا وحياتنا. وفي الوقت نفسه لا يجب أن يكون هذا الماضي المطرقة مسلطة على مستقبلنا».[1] إنها معادلة دقيقة بين الوفاء للماضي والتحرر منه؛ فالماضي مرجعية، لكنه لا ينبغي أن يتحول إلى قيد يعطل أفق المستقبل.

4.3. الأرض:

تمثل الأرض محورًا دلاليًا وفكريًا مركزيًا في مشروعه الروائي، إذ لا يتعامل معها بوصفها ملكية مادية فحسب، بل بوصفها قضية وجودية تمسّ هوية الإنسان الجزائري ومصيره بعد الاستقلال. يقول بن هدوقة: «أنا من أصل ريفي. تربيت من قرية زراعية فقيرة، وأعرف حياة الأرض وحياة سكانها، ثم الحديث عن الأرض حديث عن المجتمع الجزائري نفسه، لأنه بالدرجة الأولى مجتمع زراعي، ولا يمكن أن يتطور، ويخرج من أزمة الغذاء إذا بقيت الأرض الزراعية قطعًا مشتتة يملكها أشخاص ويفلحونها بالطرق البالية، أو بما يفعل لهم أرباعًا ولو على حساب حاجة السكان، كما أن العلاقات بين أرباب الأرض والعمال الزراعيين ينبغي أن تتغير بصفة جذرية».[2]

يبرز قول الكاتب البعد الشخصي والفكري في علاقته بالأرض، إذ ينطلق حديثه من تجربة معيشة لا من تأمل نظري مجرد. ما يمنح خطابه مشروعية واقعية؛ فهو يتكلم من داخل التجربة، لا من خارجها. وهذا الانتماء الريفي يفسر الحضور الكثيف للأرض في أعماله، بوصفها فضاءً للمعاناة والعمل والصراع الاجتماعي.

---

[1]- الطيب ولد العروسي الطيب، أعلام من الأدب الجزائري الحديث، ص164.

[2]- عبد الله أبو هيف، "عبد الحميد بن هدوقة في النقد الأدبي" الجزائر: كتاب الملتقى العاشر لعبد الحميد بن هدوقة .

ثم ينتقل من الخاص إلى العام فتتحول الأرض إلى مرآة للبنية الاجتماعية بأكملها. فالمجتمع في نظره مجتمع زراعي في الأساس، وأزمته الغذائية والاقتصادية مرتبطة بطريقة استغلال الأرض وتنظيمها. بذلك لا تعود الأرض مجرد رمز هوياتي، بل تصبح عنصرًا بنيويًا في معادلة التنمية والتطور.

ويظهر ذلك أيضا على لسان إحدى شخصياته: «الحكومة أمام هذا الوضع ماذا عملت؟ قالت: "الأرض لمن يخدمها..."».[1] وهو شعار يبدو عادلًا في ظاهره، غير أن الإشكال أعمق من مجرد توزيع قانوني، إذ يتعلق بطبيعة علاقة الإنسان بالأرض نفسها، وبإعادة بناء وعي إنتاجي مسؤول بعد الاستقلال.

تتجلى أهمية الأرض عند بن هدوقة في أبعاد ثلاثة مترابطة: بعدها الهوياتي بوصفها جذره الشخصي، وبعدها الاجتماعي بوصفها أساس المجتمع الجزائري، وبعدها الإصلاحي بوصفه مدخلًا ضروريًا لأي تحول اقتصادي حقيقي. فالأرض عنده ليست مجرد خلفية سردية، إنما حجر الزاوية في فهم رؤيته الروائية وتحليله لأزمة المجتمع الجزائري.

4. إنتاجه الأدبي:

- دراسة بعنوان: الجزائر بين الأمس واليوم، تحمل اسم وزارة الأخبار للحكومة الجزائرية المؤقتة
- رواية "ريح الجنوب" (الجزائر 1971)، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- رواية نهاية الأمس (الجزائر 1975).
- رواية "بان الصبح" (الجزائر 198).
- رواية "الجازية والدراويش" المؤسسة الوطنية للكتاب (الجزائر 1983).

[1]- عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، الجزائر: لمؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، ص181.

- رواية "غدا يوم جديد"، (بيروت 1991).
- المجموعة القصصية: "ظلال جزائرية، دار الحياة (بيروت 1960).
- المجموعة القصصية: "الأشعة السبعة" (الجزائر 1962).
- المجموعة القصصية: "الكاتب وقصص أخرى" (الجزائر 1972).
- المجموعة القصصية: "ذكريات وجراح مارينو" (الجزائر 1997).
- قصة في أبروكوتسك" (مسرحية سوفياتية) (1986).
- قصائد شعرية: "الأرواح الشاغرة" (الجزائر 1972).

ترجمت بعض أعماله إلى لغات أجنبية مختلفة.

توفي في أكتوبر 1994م وأقيم مؤتمر دولي باسمه في ولاية برج بوعريريج إحياء لذكراه من كل سنة، تحت رعاية وزارة الثقافة منذ سنة 1997م.

قائمة المصادر والمراجع:

[1]- الطيب ولد العروسي الطيب، أعلام من الأدب الجزائري الحديث، الجزائر: دار الحكمة للنشر والتوزيع، 2012م.

[1]- حمدي السكوت، قاموس الأدب العربي الحديث، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2015م، ص 432.

[1]- عبد الحميد بن هدوقة، ريح الجنوب، الجزائر: لمؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع.

[1]- عبد الله أبو هيف، "عبد الحميد بن هدوقة في النقد الأدبي" الجزائر: كتاب الملتقى العاشر لعبد الحميد بن هدوقة.